

الروائي محمد أمنصور في ضيافة المدرسة العليا للتكنولوجيا بالصويرة

إعداد: عبد العزيز جدير

استضافت المدرسة العليا للتكنولوجيا بالصويرة التابعة لجامعة القاضي عياض الروائي والناقد محمد أمنصور يوم الخميس 11 أكتوبر حيث ألقى درسا افتتاحيا بمناسبة الموسم الجامعي 2012/2013 تحت عنوان: المغربي في مرآة أدبه: أي تمثل لأي صورة؟»، وفي معرض حديثه أثار الأستاذ المحاضر جملة من الأسئلة، من قبيل: كيف هي علاقة المغربي بذاته: هل يحب نفسه أم يكرهها؟ هل هي علاقة طبيعية أم علاقة مرضية؟ كيف يتمثل المغربي صورته؟ وكيف يشخصها أدبيا؟

تفرع الدرس إلى أسئلة فرعية تتعلق بجوانب الموضوع (سؤال اللغة/سؤال الدين، سؤال السياسة) فحاول المحاضر الحفر في كيفية تمثيل المبدع المغربي لصورته، لحقيقته، التمثل بمعنى التفكير والتأمل والإدراك والفهم والتأويل؛ أي كيف يؤول المبدع المغربي وجوده تخيليا وأدبيا؟ في هذا السياق، توقف عند الوضع اللغوي في المغرب، باعتبار اللغة أساس العملية الإبداعية ككل متسائلا: هل التعدد اللغوي في المغرب يخدم صورة المغربي في أدبه أم يسبب إليها؟ وبصيغة أدق: هل نجح الأدباء المغاربة في استثمار هذا التعدد بشكل إيجابي أم العكس هو الصحيح؟

فخطورة الوضع اللغوي في المغرب (ما أسماه المحاضر بالحرب الأهلية اللغوية) تطرح مشاكل عويصة في التعليم، وتجد لها انعكاسات وتجليات متفاوتة الخطورة في كل مظاهر الحياة المغربية: الاقتصادي منها والاجتماعي والسياسي والثقافي كما أن تأثير هذا التشرذم على العملية الإبداعية كبير للغاية وي طرح على المغاربة مشكل التواصل داخل المجتمع الواحد.

من جهة أخرى، تساءل محمد أمنصور: أليس في التخندقات الإيديولوجية (أدب عربي/أدب فرنكوفوني/أدب أمازيغي) إخفاق للفكرة الوطنية؟ لفكرة الانتماء إلى وطن واحد وهوية واحدة متعددة ومركبة؟ ألا يمكن - على مستوى الأدب - أن تكون لدينا لغة مشتركة من داخل تعددنا اللغوي؟

في مستوى آخر، تساءل بصدد المكون الديني ودوره في بلورة الهوية الأدبية: هل يمكن للأديب المغربي أيا كانت لغة كتابته التخلص من فكرة الانتماء إلى مفهوم الأمة الإسلامية، بما يعني ذلك من اجترار تبعات هذا الانتماء؟ هل يمكن للكاتب المغربي أن يزعم القدرة على التملص من تبعات الأضرار التي تلحق صورته جراء مضاعفات أفعال مشينة يقدم عليها أشخاص محسوبون على الانتماء لمتخيل الأمة الإسلامية؟ كيف، إذن، تم توظيف الدين الإسلامي كمكون من مكونات الهوية المغربية في هذا الأدب؟ وهل اشتغل ويشغل الأدباء المغاربة على هذا المكون بجدية وعمق؟

بالنسبة للمكون السياسي، ركز المحاضر على مخلفات سنوات الرصاص (الأمية/تحكم المقاربة الأمنية في سياسات الدولة في التعليم والإعلام... ودور الدكتاتورية في تشويه صورة المغربي المقاوم والمكافح ضد الاستعمار، والمناضل من أجل الكرامة والاستقلال إذ نجح المخزن من خلال آتني الإعلام والمدرسة في تكريس احتقار المغربي لذاته: يقول: «لقد كرس النظام احتقارا عميقا للمغاربة أيا كانوا، ومن أي طبقة أو محتد انحدروا. هذا الاحتقار سيعكسه الإعلام الرسمي الذي أسند إلى الداخلية ليقوم بدور المحو الممنهج لذاكرة المغاربة الجمعية من خلال تاريخ رسمي فولكلوري قائم على الاختزال، وفي ظل أجواء هذا الإعلام وذاك التعليم (الخالي من مادة الفلسفة) سيلجأ الأدب والفن - عموما - إلى الغموض والرمزية والعجائبي؛ أي إلى التحايل على أشكال الرقابة المباشرة والذاتية».

لقد نجح الخطاب الرسمي والنهج السياسي - الأمني في الإغلاء من حقيقة المقدس السياسي في مقابل طمس تعقيد وغنى وتناقض وتعدد الحقيقة المجتمعية للمغاربة.. على أنه لم يكن انتصارا مطلقا، لأن أشكال المقاومة كانت تتخذ لها أكثر من لبوس: شعار التجريب - مثلا - على حساب الواقعية التي لم تعمر طويلا. والنصوص الأدبية، المسرحية والروائية والقصصية الحافلة باللعب التقني - تحت شعارات شتى: الحداثة/التجريب/التجديد... لإخفاء المواجهة النقدية المباشرة مع الواقع السياسي القمعي القائم.

وبين المرجعية الفرنكوفونية والمرجعية المشرقية والمرجعية الأمازيغية، ستتشكل - حسب المحاضر - التضاريس اللغوية والثقافية للمغربي الذي نقصده عندما نتحدث عن الأدب المغربي. فهو إما كاتب أو قارئ بوحدة من اللغات الثلاث أو باثنتين منهما، وليس أبداً بكل تلك اللغات واللهجات مما يستدعي السؤال التالي: - هل يتعلق الأمر بمخيال واحد عندما ندرج كل ما يكتب بهذه الوسائط اللغوية المختلفة تحت مظلة واحدة تسمى: الأدب المغربي؟ وبعد الوقوف مطولاً عند نماذج من الأدباء والمسرحيين الذين شخصوا صوراً أدبية معينة للمغربي من مواقع لغوية متعددة قال: «بين الصورة المستهامة للمغربي، والصورة المكروهة، هل قام الأدباء المغاربة بدورهم أحسن قيام؟ لا نريد أن نعمم، فنحكم بأن صورة المغربي في مرآة أدبه غير مطابقة لأي مثال معلوم به، ولا هي مطابقة لأي واقع موجود.

وسواء أتعلق الأمر بتمثيل موضوعي أو ذاتي لتلك الذات، فإن العوائق المشار إليها سابقاً، والتي تأتي في مقدمتها: الحرب الأهلية اللغوية الصامتة المستمرة منذ عقود؛ تجعل من صورة المغربي في أدبه مهزوزة، ومؤجلة الإنجاز إلى إشعار آخر؛ وإلا فأين هو نجيب محفوظ المغربي الذي يقرأه الفرنكوفوني والعروبي والأمازيغي فيجدون ذاتهم المتعددة والمناقضة في تركيبته القائمة على الهجته المنتجة؟ أين هو بلزاكنا؟ أو سرفانتسنا؟ في الأخير، سيختتم الأستاذ محمد أمنصور بمحاولة الإجابة عن سؤال أخير، وهو: من هو الآخر بالنسبة للمغربي؟ «إنه - ويا للمفارقة - ليس الغرب أو الإنسان الغربي - بالضرورة - بقدر ما هو كامن فينا. هو آخر داخلي، يعيشه المغاربة كتصدع في الهوية، ويكرسه الأدباء كانشقاق للذات عن ذاتها (آخر عربي، آخر أمازيغي، آخر أندلسي، آخر إفريقي، آخر متوسطي، آخر فرنكوفوني، آخر يهودي... إلخ)، إنها حالة التناقض الوجداني القصوى، أو السكيزوفرنيا التي تجعل علاقة المغاربة بأديهم علاقة إنكار واعتراف في آن. تجعل الاختلاف اللسني أو اللهجي يتحول إلى غيرية جذرية؟ أليس هذا مظهراً من مظاهر السكيزوفرنيا؟»

وللخروج من المأزق، دعا الأستاذ أمنصور إلى ما أسماه الطريق الثالثة، حيث التفاوض بين اللغات والثقافات بحثاً عن أفق الهجته، وحيث يتم تدبير الاختلافات ضد مبدأ الجوهرانية في الهوية، والإقصاء والانتقائية والفصامية. يقول: «نحن مدعوون في أفق مستقبلي غير منظور إلى إيقاف الحرب الأهلية اللغوية والثقافية التي يكرسها الأدباء تجاه بعضهم أسوة بالإعلام والتعليم، والانتقال إلى طور جديد من الوعي بالذات والهوية والأدب: الوعي بعمقنا المغربي داخل منطلق ومنظور الهجته بما هي سيرورة تتقاطع فيها وتتحاور الروافد اللغوية والإمكانات الثقافية. فالهجته المنتجة تفاعل على أنقاض وهم الأصل اللغوي، أو العرقي، أو الثقافي، أو الرمزي. ولكي يحرق المغربي مكبوته اللغوي والديني والسياسي بوساطة أدبه، لكي يعيد رسم نموذجيه وتمثله وتشخيص صورته مطابقة لحقيقته الشمولية في تعدديتها وغناها الحضاري والتاريخي واللغوي، يتعين عليه ببساطة أن يتصالح مع ذاته حتى يتيسر له أن يكون ما يريد هو»

في أعقاب الدرس الافتتاحي فتحت لائحتان على التوالي لأسئلة الطلبة وتعقيباتهم التي تميزت بالحيوية والتنوع والحماس، حيث أثرت العديد من القضايا المشتقة من أسئلة المحاضر ذات صلة بعلاقة الدكتاتورية بالفقر والامية، ودور المجتمع المدني والدين الإسلامي في تغيير الأوضاع، والحلول المفترضة لتغلب المغربي على عوائقه الذاتية والموضوعية، وفي معرض رده، أشاد الأستاذ محمد أمنصور بالمستوى العالي لوعي الشباب - الطلبة بأهم قضاياهم المصيرية، مؤكداً على أن انتقال المجتمع المغربي من ثقافة الرعية (التقليد) إلى ثقافة المواطنة (الحدثة)، ومن الخصومة مع الذات إلى المصالحة معها تقتضي ثورة ثقافية وتربوية تقومان على الاعتراف بالذات وتثقيف الوجدان والعمل في اتجاه تفاعل مختلف المكونات اللغوية والثقافية المتعددة للشخصية المغربية (في الواقع والأدب) في أفق إنتاج صورة قوية، حقيقية ونموذجية تستجيب لروح المغربي وطموحه في أن يرى نفسه في مرآة أدبه إن لم يكن كما يحلم بها أن تكون، فعلاً الأقل كما هي في الواقع.